

الأثر الإيقاعي للتنغيم في سورة المائدة

أ. محمد بولخطوط جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل

ملخص:

يعالج البحث ظاهرة صوتية لها أهمية بالغة في تحديد الدلالة، ألا وهي: ظاهرة التنغيم؛ وذلك من خلال ما يخلفه الإيقاع الصوتي الملائم لها من تلوّنات تنغيمية، تتراوح ما بين الصعود والهبوط والاستواء، ومدى تأثير ذلك على توضيح المعاني والدلالات في آي سورة المائدة.

Résumé:

La recherche porte sur l'importance d'un phénomène acoustique dans la détermination du sens : le phénomène de la tonification et cela de ce qu'il engendre comme rythme vocal nécessaire aux différentes connotations toniques, variant entre l'ascendante, la descendante et la stable; et son impact dans la détermination des sens et des teneurs des Versets de *Sourat El Maïda*.

أقام علماء اللغة والأصوات نظرية استطاعت على المستوى النظري، أن تكشف عن النظام الذي تنطوي عليه وظيفة الصوت داخل نظام أية لغة، واستطاعت على المستوى التطبيقي أن تحلّ كثيراً من المشكّلات العلمية في تعلم اللغات، كما استطاعت هــذه النــظرــية أن تقدم فــكرــة أصلــية لــلتــحلــيل اللــغوــي، وهي فــكرة المــلامــح فوق/غير التــركــيبــية؛ أي الخــصــائــص الصــوتــية التي تمــيز فــونــيمــا عن فــونــيمــ آخر، ومن تمــ أصبح مــفــهــوم الفــونــيم عــبــارة عن مــجمــوعــة من المــلامــح المــميــزة التي تــنبــع من الخــصــائــص النــطقــية والــســمعــية والتي تــحدــد كلــ صــوت من أصــوات اللــغاــة مثل مــوــضــع النــطــق وصــفــتــه وغــيرــهــما.

وهــاته المــلامــح الصــوتــية تــقع خــارــج البنــية اللــغوــية، وهي ما يطلق عليها علماء اللغة والأصــوات المــلامــح فوق/غير التــركــيبــية، لأنــها لا تــدخل في جــوــهــر التــراكــيب اللــغوــية كما هو الحال مع الصــوــامــتــ والــصــوــائــتــ، بــيد أنــ لها تــأــثــيرــات مــوجــهــة للبنــى الوــظــيفــية، ومن هذه المــلامــح التــميــزــية التنــغــيمــ. فــما المــقصــود بهــ؟، ثــمــ كــيــفــ يؤــثــرــ إــيقــاعــيــا عــلــى إــبــرــازــ المعــنــىــ؟ــ.

أولاً: تعريف التنظيم

١- لغة: عرف صاحب معجم "مقاييس اللغة" التنغيم فقال: «نغم: النون والغين والميم ليس إلا النغمة، جرس الصوت بالقراءة وغيرها وهو اللُّغُمُ، وتنغمُ الإنسان بالغناء ونحوه»^(١). إذن فالتنغيم في اللغة يعني الغناء وتلحين الكلام وتنميقه بُغية أن يكون حسناً في السمع.

2 - اصطلاحات

لقي التنغيم شأنه في ذلك شأن بقية الطواهر فوق التركيبة اهتماما من لدن الدارسين
المحدثين أكثر من غيرهم، لاسيما وأنه يُعرف بموسيقى الكلام على حد تعبير إبراهيم أنيس "كونه يضع العبارة، أو الجملة في قالب تلحيني موسيقي مميز، وفيما يلي عرض وجيز لبعض
هذه التغيرات التي صاغها هؤلاء الباحثين لهذا المفهوم:

* تعريف "الفارابي" يعرّف الفارابي التنغيم مستعملاً مصطلح "النغم" للدلالة عليه فيقول: «والنغم: الأصوات المختلفة في الحدة والثقل، التي تختلط، أنه ممتدة»⁽²⁾.

* تعريف "شاهر الحسن": يعرّف التنغيم بقوله: «التنغيم يعني التغيير في درجة الصوت ارتفاعاً أو هبوطاً أو استواءً من بداية الجملة (أو العبارة) حتى نهايتها»⁽³⁾.

* تعريف "مصطفى حركات": هو: «تغیر في ارتفاع النغمة يخص سلاسل أطوال من الترددات، بنطاق علىها النبر، وغالبا ما يخص الحملة أو شبه الحملة»⁽⁴⁾.

اتفق الجميع على ذكرها في: أن التنغير هو تغيير على مستوى الصوت، إما صعوداً وإما نزولاً، وإما توسيطاً أو اعتدالاً، وبتعبير أدق فإن التنغير هو الارتفاع أو الانخفاض في درجة الجهر بالصوت، وذلك منوط أساساً باختلاف نسبة اهتزاز الورتدين الصوتين.

ثانياً: علاقات التنغيم

للتنغيم علاقات كثيرة ومتعددة يمكن إبراز بعضها في النقاط التالية:

1 - بين النغمة وبين اللحن:

يفرق بعض الدارسين بين النغمة واللحن، فأما النغمة فيقصد بها: «تنغيم المقطع الواحد في عموم المجموعة الكلامية، فتوصف النغمة بأنها صاعدة أو هابطة أو مستوية، وأما اللحن فهو مجموع النغمات في المجموعة الكلامية: أي الترتيب الأفقي للنغمات، ويقترب معنى اللحن من دلالة مصطلح التنغيم»⁽⁶⁾.

2 - بين التنغيم وبين النغمة:

يعد كلّ من التنغيم والنغمة فونيما غير تركيبية أو ظاهرة فوق تركيبية؛ ذلك أن مثل هذه الظواهر الصوتية الوظيفية ليست جزءاً من التركيب نفسه: أي أنها ليست عناصر مكونة للتركيب الصوتي للغة كما هو الحال مثلاً مع الصوات والصوائت، هذا فضلاً عن كون التنغيم مثله مثل النغمة «تالي درجات صوتية مختلفة أثناء النطق، أو بعبارة أخرى هو الارتفاع والانخفاض في درجة الصوت أثناء الكلام»⁽⁷⁾، وما يفرق بينهما: أن النغمة هي «ارتفاع الصوت وأنه ينخفض على مستوى الكلمة المفردة مثل: نعم، بل، لا، أما التنغيم فيوظّف على مستوى العبارة أو الجملة»⁽⁸⁾.

وتسمى اللغات المستعملة للنغمة: «لغات نغمية»، حيث تقوم النغمة فيها بوظيفة تمييزية شأنها في ذلك شأن الفونيم.

3 - علاقة التنغيم بالإيقاع والموسيقى:

يحدد "قاسم بنى دومي" طبيعة هذه العلاقة قائلاً: «للتنغيم صلة وثيقة بالإيقاع وموسيقى الكلام وعليه يمكن القول: إنَّ التنغيم ظاهرة صوتية تنظم التركيب عن طريق إطلاق نغمات موسيقية منتظمة ومتعددة، في حدث كلامي معين؛ وذلك لأداء دلالات معينة»⁽⁹⁾.

4 - بين التنغيم وبين الترقيم:

يقدم "تمام حسان" ترقية بين التنغيم وبين الترقيم فيقول: «التنغيم في الكلام المنطوق كالترقيم في الكلام المكتوب، غير أنَّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة، وربما كان ذلك لأنَّ ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر مما يستعمله الترقيم من علامات كالنقطة والفاصلة والشريطة وعلامة الاستفهام وعلامة التأثر، وربما كان ذلك بسبب آخر...»⁽¹⁰⁾.

من خلال هذا الكلام الذي ساقه "تمام حسان" يمكن القول بأنَّ التنغيم أوسع من الترقيم وأشمل منه، فهو يتقطع معه في بعض الجوانب ويتجاوزه في جوانب أخرى؛ ذلك أن عمليات الترقيم في الكتابة إنما تعتمد أساساً على العلامات السابقة الذكر فقط، في حين يعتمد عليها التنغيم كوسيلة لفهم المعنى المراد، هذا فضلاً عما يستخدمه من تلوّنات لفظية وصوتية

وحتى إشارية. قياساً على هذا يمكن القول: إن التنفييم هو ترقيم الفصاحة، أما الترقيم فهو تنفييم البلاغة.

5 – علاقة التنفييم بالوقف:

إن دور الوقف يكاد ينحصر في إبراز نوع التنفييم من خلال النغمة الأخيرة الموقف على لها، والتي عادة ما تكون منبورة، لاسيما إذا كانت على مستوى المقاطع المنبورة، والتي لا تتحقق غالباً إلا عند الوقف⁽¹¹⁾.

6 – علاقة التنفييم بالترتيل:

تقتضي قراءة القرآن قراءة مرتبة مراتلة مراعاة قوانين النغم، أو ملامح العلو الموسيقي، والترتيل لا يكون كاملاً إلا بحفظ هذه الملامح؛ ذلك أن علم التجويد لا يختص بدراسة الأصوات اللغوية من حيث إتقان مخارجها واعطائهما حقها ومستحقها فحسب، إنما هو أيضاً ملامح نغمية وتنفييمية ينبغي صيانتها وحفظها⁽¹²⁾، وهذا ما انتبه إليه الإمام "الزركشي" حيث يقول في "البرهان": «فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديداً لفظاً به لفظ المتهيد، وإن كان يقرأ لفظاً تعظيم لفظاً به على التعظيم»⁽¹³⁾ إذن فثمة صلة وثيقة بين «تحقيق الصوات والصوتات تحقيقاً مجوّداً وتوظيف ملامح العلو الموسيقي»⁽¹⁴⁾ من أجل تحقيق المعنى المراد.

7 – علاقة التنفييم بالنبر:

يتقاطع التنفييم مع النبر في أن كلاهما يشتركان في خاصية فيزيائية واحدة وهي استفادتهما من الوحدة الصوتية (الصوت)، غير أن التنفييم يخالف النبر في الحدود والدلالة، فـحدود التنفييم أوسع من حدود النبر؛ ذلك أن الأصل في حدود التنفييم هو "الجملة"، بينما من أولها وينتهي عند آخرها. في حين أن النبر قد يكون في كلمات الجملة (النبر الجملي)، وقد يكون على مقطع من مقاطع الكلمة، أو صوت من أصواتها (النبر الكلمي). أمّا فيما يخص الدلالة فإن دلالة النبر تعود إلى نوعيه؛ فالنبر الجملي تتعلق دلالته بالمستوى التركيبية (السياق)، أما النبر الكلمي فتتعدد دلالاته بتعدد أنواعه، فقد يؤدي وظيفة فونيمية فهو حينها ذو دلالة صرفية أو معجمية، كما قد يؤدي وظيفة تطريزية، فهو لا دلالة له، وإنما يعده حينئذ جزءاً من البنية الصوتية للكلمة، وهاتين الدلالتين يؤديهما النبر حينما يكون شديداً (نبر الشدة)، أمّا نبر الطول وهو النوع الثاني من نبر الكلمة فدلالته إنما أن تكون انفعالية أو تأكيدية أو تثير الاندهاش، أمّا دلالة التنفييم فهي دلالة عامة على مستوى الجملة وهي: الإخبار، الاستفهام، الاستنكار، التعجب والإقرار...⁽¹⁵⁾.

ثالثاً: أنواع التنغيم

اشتهر عند علماء الأصوات ثلاثة أنواع من التنغيم وهي:

1 - النغمة الصاعدة: وتعني: «وجود درجة منخفضة في مقطع أو أكثر، تليها درجة أكثر على منها»⁽¹⁶⁾.

ومعنى هذا أن هذه النغمة: «تنتهي بدرجة إسماع عالية، ففي حالات الاستفهام والشرط والغضب مثلاً تتواتر الحال الصوتية عند نهاية الجملة، فيكون الصوت حاداً»⁽¹⁷⁾.

ومثال النغمة الصاعدة قوله تعالى: [لَا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْأَقْوَافِ إِنَّمَا يُنَاهِي أَنَّ الْأَوْافِ] المائدة/89، فمن علامات منحنى الرفع أو قوة النغمة: القسم، قال "ابن كثير" في تفسير الآية السابقة متحدثاً عن

يمين اللغو: «وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله»⁽¹⁸⁾.

2 - النغمة الهاابطة: وتعني «وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر، تليها درجة أكثر انخفاضاً»⁽¹⁹⁾.

ومعنى هذا أن هذه النغمة: «تنتهي بدرجة إسماع منخفضة، ففي حالات الضعف والعجز والهدوء والحلم أو في الجمل التقريرية عموماً، ترتخي الحال الصوتية في نهاية الجملة، فيكون الصوت ثقيلاً، وهذا ما يفسّر وجود النغم الهاابط»⁽²⁰⁾.

ومن أمثلة النغمة المنخفضة الهاابطة قوله تعالى: [فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ] المائدة/30، فالمقام هنا مقام إخبار وتقرير.

ويكثر ورود الأولى في جمل الاستفهام التي تتطلب الإجابة بنعم أو بلا، وكذلك الجمل المعلقة

على الشرط، أمّا الأخرى فيكثر دورانها في الجمل التقريرية والخبرية، وحتى الجمل الاستفهامية بالأدوات الخاصة.

كما قد تظهر النغمتان الصاعدة والهاابطة في جملة واحدة: كجملة الشرط بطرفيها؛ فجملة الشرط تشتمل على نغمة صاعدة، لعدم تمام الكلام وجملة الجواب ذات نغمة هابطة لتمام الكلام⁽²¹⁾.

3 - النغمة المستوية: وهي عبارة عن «عدد من المقاطع تكون درجاتها متحدة، سواء أكانت منخفضة أم عالية أم متوسطة، وعلى ذلك فالنغمـة المستـوية تأتي على صـور ثـلات وهي: نـغـمة مـسـتـوـية مـنـخـفـضـة، نـغـمة مـسـتـوـية مـرـتفـعـة، نـغـمة مـسـتـوـية مـتوـسـطـة»⁽²²⁾.

فواضح من خلال هذه الأنواع التنغيمية الثلاثة أن العلماء قد اعتمدوا في وضعها، على معيار الاتجاه الصوتي منذ بداية الكلام وحتى نهايته. بيد أن هناك عدد من الباحثين قد أضافوا نوعين آخرين للتنغيم غير الأنواع الثلاثة المذكورة آنفاً وهما:

* **التنفيذ الصاعد الهاابط:** وذلك بأن تكون: «البداية هابطة يعقبها صعود إليه هبوط في النغمة»⁽²³⁾.

* **التنفيذ الهاابط الصاعد:** ويتمثل ذلك في أن يبدأ الكلام بـ: «نغمة صاعدة، تليها نغمة هابطة ثم نغمة صاعدة»⁽²⁴⁾.

رابعاً: خصائص التنفيذ

يتسم التنفيذ بجملة من الخصائص، لابد من وجودها جميعاً في العبارة المنطقية: وذلك لكون أيّ نطق لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن قوّة الصوت أو شدته أو سرعته، ومن تمّ فهي تتشارك جميعاً في أداء وظيفتها، وعلى ذلك يصعب الفصل والتمييز فيما بينها، وهذه المميزات هي⁽²⁵⁾:

1 - **النفمة:** ونعني بها حركة النغمة في العبارة التي

يكونها ارتفاع جرس الصوت الأساسي أو انخفاضه، فالنغمة مكوّن نغمي.

2 - **الشدة:** وهي المكوّن الإيقاعي الحركي.

3 - **الطول والسرعة:** وهو المكوّن الزمني، أثنا المكاني فهو موقع النغمة بين النغمات.

4 - **الوقف:** أي القطع والنطق بأطوال مختلفة.

5 - **الحدّة:** أي تلوّنات الكلام الشعورية والانفعالية.

6 - الاعتماد على المنطوق دون المكتوب، وإن كان اللغويون قد وضعوا علامات للترقيم تعبر عن تلك النغمات مثل النقطة، الفاصلة، علامة الاستفهام، التعجب،...

7 - **التنفيذ ظاهرة صوتية** تشتراك فيها معظم اللغات لكونها تؤثر في تغيير الدلالة، دون أن تتغيّر المفردات وهنا تكمن أهمية التنفيذ.

خامساً: أهمية التنفيذ

يعرف "الجاحظ" الصوت مبيّناً أهمية التنفيذ قائلاً: «والصوت هو آلة البيان والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزيناً ولا منثوراً إلّا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلّا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدلّ والشكل والتّفّل والتّئّل واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور»⁽²⁶⁾.

واشارة "الجاحظ" في هذا القول لدليل على أهمية التنفيذ في السياقات التنظيمية للمتكلّم، وهي بعد ذلك التفاتة واضحة المعالم إلى الجرس الصوتي الذي يرافق الحركة أثناء تأدية الفعل الكلامي.

سادساً: وظائف التنغيم

يؤدي التنغيم على مستوى اللغة جملة من الوظائف اللغوية، ولعلَّ أبرزها ما يلي:

1 — الوظيفة الصوتية: تتجسد هذه الوظيفة في التنغيم في ما له سمة صوتية موسيقية، تشبه الترجيع اللحنى، فمن المعلوم أنَّ التنغيم يقوم على التنويعات الموسيقية في نسق الكلام، ولا يبعد هنا الأثر الموسيقى الجمالي لهذه التنويعات، مما يملك على السامع أسباب التواصل والارتياح⁽²⁷⁾.

2 — الوظيفة الصرفية: لقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزاناً موسيقية، وكلَّ بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة، فالفرق بين الكلمة ومشتقاتها نحو: الفعل (يحمد)، اسم الفاعل (حامد)، اسم المفعول (محمود)، الصفة المشبهة (حميد)... وما يتفرع عنها، هو فرق بين الأفعال والأسماء والمصادر والصفات وإفراد ومجموع، وهو كله قائم على الفرق بين وزن آخر، وبين قياس صوتي آخر مثله، يتوقف على الحركات والنبرات؛ أي اختلاف النغمة الموسيقية، فكلَّ وزن من الأوزان الصرفية نغمة موسيقية محددة، تختلف باختلاف الصيغة ودلالتها. فلفظة "يشافق" مثلاً وردت في القرآن الكريم بالإدغام وبدونه، ففي سورة الحشر يقول المولى عزَّ وجلَّ [وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ] الحشر/4 بالإدغام، فالتنغيم الصوتي في حرف "الكاف" — حالة الإدغام — وقبله المد يعبر عن صعوبة الحدث وعاقبته الوخيمة، لأنَّه تعامل مع الخالق، وبغير الإدغام مع لفظة "الرَّسُول" في قوله تعالى: [وَمَنْ يُشَاقِّ الرَّسُولَ] النساء/115، فيعتبر التنغيم عن كون الشقاق مع المخلوق غيره مع الخالق، فهو أسهل قياساً بالأول، كما يمكن للنغمة كذلك أن تتدخل في تحديد عدد وجنس ونوع الصيغة الصرفية، وهذا يدل دلالة واضحة على أنَّ للتنغيم وظائف صرفية دلالية مهمة⁽²⁸⁾.

3 — الوظيفة النحوية: تعدَّ هذه الوظيفة عاماً فاعلاً في التمييز بين أنماط التراكيب والتفريق بين أجناسها النحوية، فالتنغيم بأنماطه المتنوعة عامل أساسى في بيان أنَّ المنطوق مكتمل في مبناه ومعناه أم غير مكتمل. يظهر ذلك بوضوح في الجمل الشرطية، كما في قولنا مثلاً: "إِنْ تَأْتِ، تَجَدْ مَا يُسْرِكَ."، حيث تنتهي جملة الشرط بنغمة صاعدة دليلاً على عدم تمام الكلام، فتمامه يحصل بجواب الشرط الذي ينتهي بنغمة هابطة، دليلاً على الاكمال في المبني والمعنى معاً. والتنغيم هنا يؤدي دوراً يشبه دور علامات الترقيم في الكتابة، كما هو واضح من خلال المثال السابق: فوجود الفاصلة في الجزء الأول من العبارة السابقة دليل على استمرارية المنطوق، كما تعنى ارتباط هذا الجزء من المنطوق وتعلقه بما يكمله، فكانَ النقطة في النهاية دليلاً على الاكمال. ومن أهمَّ الوظائف الأخرى التي يؤديها التنغيم: دوره في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجبية، فالجمل التقريرية لها نمط خاص من التنغيم في ذها ياتها: يتمثلُ هذا النمط في النغمة الهاابطة التي تدلُّ على تمام المنطوق وакتماله، في حين أنَّ الجملة الاستفهامية . . . وبخاصة تلك التي تستوجب الإجابة بلا

أو نعم — تنتهي بنغمة صاعدة كما هو الحال في الجمل الاستفهامية التي تستخدمن فيها عادة أدوات الاستفهام العامة، وهي: الهمزة وهل، كقولك: أفهمت؟ فيكون الجواب: لا أو نعم، حيث تنتهي جملة الاستفهام بنغمة صاعدة، دليلاً على أنَّ الكلام لم يتم (في موقفه المعين)، وتمامه بالإجابة (بصورتيها المذكورتين) التي تنتهي بنغمة هابطة⁽²⁹⁾.

4 – الوظيفة الدلالية السياقية: حيث تنبئ اختلاف النغمات وفقاً لاختلاف المواقف الاجتماعية عن وجهات النظر الشخصية من رضا وقبول وجزر وتهكم وغضب وتعجب ودهشة ودعاء... إلخ، حيث يقوم التنغيم بأداء هذه المعاني بمعونة السياق العام المتعلق بالظروف والمناسبات التي يلقي فيها الكلام، وبهذا يكون عنصر التنغيم ركناً أساسياً في الأداء، يتحكم على نحو واضح في تحديد المعنى وتوجيهاته، اعتماداً على كيفية نطق الجملة وتتنغيماً؛ فتغيّر النغمة قد يتبعه تغيير في الدالة⁽³⁰⁾.

ومن خلال هذه الوظيفة يمكن القول: إنَّ التنغيم له أهمية كبيرة في تحديد معنى الجمل وتجيئه، فهو بهذا من مصطلحات علم الأصوات الوظيفي، تكمن مهمته في «حلَّ الكثير من الإشكالات الدلالية اللغوية، التي تتصل بالأصوات وسياقات الكلام التنظيمية، إذ تتحدد الصور النطقية بموجب أنماطه، من صعود وهبوط واستقرار»⁽³¹⁾، ولللغة العربية واحدة من اللغات التي يعمل فيها التنغيم عمله، فهي لغة تنعيمية: أي أنَّ التنـغـيم يؤدي وظيفته فيها على مستوى الكلمة والجملة مفرقاً بذلك بين أساليبها الكلامية، ولعلَّ ما يفسِّر أهمَّ وظيفة يؤديها التنغيم هي الوظيفة التركيبية والنحوية لعنایته أكثر بالجمل والعبارات اللغوية.

فضلاً عن هذه الوظائف الأربع التي يؤديها التنغيم هناك الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية، فهو يعبر عن الانفعالات والمشاعر؛ ذلك أنَّ تنغيم الرضى مثلاً غير تنغيم الغضب، وتنغيم الحزن غير تنغيم الفرح وهكذا دواليك، ويمكن أن نجمع كلَّ وظائف التنغيم في وظيفة رئيسية وهي **الوظيفة التمييزية**، فهي اللغة العربية مثلاً هناك الكثير من الجمل التي يختلف معناها باختلاف الصورة التنعيمية التي تلفظ بها، وذلك عن طريق الارتفاع والانخفاض في درجة الصوت، مع ما يحيط به من مقتضيات السياق وملابسات الموقف.

بعد هذا العرض الموجز للتنغيم ووظائفه أمكن للسائل أن يتسائل فيقول: هل التنغيم "فونيم" في اللغة العربية أم أنه مجرد تلوّن صوتي تنتجه منه ملاحة في الكلام؟.

سابعاً: فوئيمية التنظيم في النظام اللغوي العربي

يرى بعض الباحثين أن التنفي في العربية غير ذي دلالة، ويرجع ذلك إلى أمرين: الأول منهما: أن العربية تستغنى عنه بالأدوات وعلامات الإعراب، والآخر لأن اللغويين القدامى لم يسجلوا لنا شيئاً عنه⁽³²⁾. وإذا كان الأمر الأول مقبلاً ولا لدّ ما فإن الأمر الآخر لا يهم... كن لبيم به، هذا من جهة، وتعظيم هذا الحكم على كل علماء الأصوات القدامى من جهة أخرى، فها هو "ابن جني" مثلاً، وهو من قدامى الصوتين نجده قد عقد في كتابه "الخصائص" بباب تحت عنوان "في نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها"، وهذا يؤكد بأن "ابن جني" كان على وعي تام بظاهرة التنفي في العربية، ودورها الوظيفي والمتمثل في تحديد معانٍ ودللات الكلام، وفي هذا الصدد يقول مؤكداً على وجود هذه الظاهرة في اللغة العربية: «ومن ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجب استحال خبراً. وذلك قوله: مررْتُ بِرَجُلٍ أَيْ رَجُلٍ! فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهمًا (...). ومن ذلك لفظ الواجد، إذا لحقته همة التقرير عاد نفياً، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجاباً وذلك كقول الله سبحانه: [أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ](*).

ثامناً: الدراسة الإيقاعية للتنفيذ في سورة المائدة: بين الأداء والدلالة

تشكل العلاقة بين الأصوات ودلائلها في العربية ظاهرة لا يمكن إنكارها، وهي تمتد لتشمل كما كبيراً من ألفاظ اللغة العربية وتراكيبيها، بل إنَّ العربية أكثر اللغات احتواءً لمظاهر الدلالة الصوتية، سواءً أكان ذلك على مستوى اللفظ أم السياق أم على مستوى الأداء، أم على مستوى الصيغ والأوزان؛ وزيادة المعنى ناتجٌ في أساسه عن زيادة في المبني.

يعد التص القرآنى على هذا الأساس من أغنى النصوص وأثراها من الناحية الصوتية، ولذا فإن الصوت في القرآن له دوراً مهماً وأساسياً في جاذبيته الجمالية المتمثل في الإيقاع المتممّل، والدلالي المتممّل في ما يفيد من معانٍ وأغراض، وأهمية الصوت تكمن في تكوين الإيقاع المناسب للمعنى والغرض، ونوع التأثير المراد إثارته في نفوس السامعين.

إن الأداء القرآني المتقن وفق أحكام التجويد، ووفق مظاهر التبشير الصوتي ظهر لنا الدلالات الحقيقة للنص القرآني بآفاقها الواسعة، ومن بين هذه التنوعات الصوتية التي لها دوراً كبيراً في ربط الصوت بالمعنى: ظاهرة التنغير.

و قبل الخوض في الدراسة الصوتية الإيقاعية الخاصة بهذه الظاهرة، لا بد من الإشارة أولاً إلى أن طبيعة النص القرآني من الناحية الأدائية أو التلاوة يختلف عن النصوص الأخرى نثرها وشعرها، فالذي يريد أن يتلو القرآن، عليه أن يكون ملماً بقواعد التلاوة تعلمًا وأداءً لكي يقرأه قراءة صحيحة، وقبل أن يجتهد العلماء في وضع قواعد التلاوة الصحيحة، كان الناس يقرؤون

القرآن مجودا على السليقة، ولكن حينما اختلط العرب بالعجم في عصر الفتوحات الإسلامية وما بعدها، انتشر اللحن في التلاوة فاجتهد القراء والمجددون ووضعوا قواعد وأحكام التلاوة النموذجية للقرآن، وسمّوه بـبُقْنَة: الترتيل أو علم التجويد الذي يقتضي أن يعطي القارئ الحرف حقه ومستحقه من المخارج والصفات.

وحيث أنَّ المقام لا يتسع لبحث كلَّ آيات سورة المائدة رغبة في إعطاء صورة واضحة عن فكرة العلاقة بين الأداء الصوتي لظاهرة التنغيم ودلالة على مستوى هذه السورة الكريمة، من خلال ما يخلفه الإيقاع الملائم له من تلوّنات صوتية تتراوح بين مستويات نغمية متباعدة من شأنها الوقوف على المعنى المقصود، رأيت أن أقصر البحث على بعض آيات سورة المائدة، متبوعة بدراسة دلالية مستنبطة من خلال الأثر الإيقاعي للتنغيم على مستوىها.

الآية 43

قال الله تعالى: [وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ].

الاستفهام معاني متعددة وأغراض كثيرة تتفادى من خلال سياق الكلام وحال المخاطب أو المتكلم، والظروف المحيطة بهما. فإذا كان الغرض من استعمال أداة الاستفهام: السؤال بهدف الوصول إلى إجابة معينة، فإنّ أداة الاستفهام هنا تؤدي معناها الأصلي، أما إذا كان السؤال لأداء غرض آخر غير الاستجواب، فإنّ الاستفهام في هذه الحالة يخرج عن معناها الأصلي إلى معانٍ أخرى، تماماً كما هو الحال مع لفظة "كيف" في هذه الآية، حيث خرجت من معناها الأصلي وهو الاستفهام إلى معنى التعجب والاستغراب؛ فعلى جيب حال هؤلاء اليهود الذين تركوا حكم التوراة التي يدعون الإيمان بها وهم يدركونه، وطالبوها من الرسول (ص) أن يحكم لهم في مسألتهم، ورضاهم بحكمه إذا وافق أهواهم، وتركتهم آياته إذا جاء على غير ما يريدون، وما ذلك إلا إثباتات وتاكيد على أنّهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيماناً صادقاً صحيحاً «إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، إلا إذا أمن بأنّ ما أحب الله شعّ من الله أيضاً أتى به الآباء، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك»⁽³⁴⁾.

والاستفهام هنا الذي جاء في صيغة التعجب لا يهدف إلى الاستجواب أو الاستخبار، ومع ذلك فالمناسب لها المعنى أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صاعدة على طول مدى هذه الآية، لتؤدي إلى إيصال معنى الاستغراب من حال هؤلاء اليهود.

الآية 64 – 2

قال الله عز وجل: [وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ الْيَهُودُ يَدْعُونَا مَعْلُومًا وَلَعْنُوا بِمَا قَاتَلُوا بِأَنَّهُ يَدَاهُ
مُبْسُوطَةٌ] يُتَفَقَّدُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيُزَيِّنَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ طُقْيَاً وَكُفْرًا وَالْقَيْتَانَ
بَيْنَهُمُ الْغَدَوَةُ وَالْبَقْصَامَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلُّمَا أَقْدَمُوا تَارًا لِلْخَبْرِ أطْفَلَاهُ اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ].

أما فيما يتعلق بالتنعيم على مستوى هذه الآية فإنه يمكن تقسيمها إلى مجموعتين مقطعيتين

نغميتين مختلفتين باختلاف القراءة، فقد يحدث وأن تسمع بعض القراء يقرؤون قوله تعالى: [وَقَاتَ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْوِلَةً] بتنعيم صاعد مرتفع؛ فهو يغلب على قراءتهم نوع من الانفعال يدل على الاستنكار الشديد لهذه الادعاءات والافتراءات الباطلة على الله تعالى. بل إن هذا الانفعال يمتد ليبلغ مداه من الإعلان والتفخيم عند قوله المرد القـرآنـي على هذه الادعاءات، يقول الله تعالى: [غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ] إلى قوله: [طُفِيَّا وَكُفَّرَا] ويتبع منحنى الرفع هذا نغمة هابطة فيها تقرير وإخبار بجزاء أعداء الله المفترين عليه، قال تعالى: [وَأَنْقَبَنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَعْضَاءُ] إلى قوله تعالى: [وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ].

فبناء على هذا الكلام يمكن القول: إن هذه الآية تبتدئ بنغمة صاعدة تتبعها نغمة أخرى هابطة. وقد يحدث في المقابل أن تسمع بعض مرتلي القرآن الكريم يقرأ قوله تعالى: [وَقَاتَ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْوِلَةً] بنغمة هابطة؛ وخفض الصوت في هذه المواطن وغيرها من المواطن المشابهة، له دلالة مركبة ومحورية مفادها: أن الخـضـنـهـنـاـ يـمـثـلـ رسـالـةـ صـوتـيةـ للمستمع مـؤـداـهـاـ أـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ اـفـتـرـاءـ عـلـىـ الـمـوـلـىـ عـزـ وـجـلـ،ـ وـلـيـسـ لـهـ أـسـاسـاـ مـنـ الصـحـةـ.ـ يـقـولـ "أـحـمـدـ الـبـايـيـ"ـ مـوـضـحـاـ هـذـهـ الدـلـالـةـ:ـ «ـإـنـ هـذـهـ الـآـيـاتـ فـيـهـاـ جـرـأـةـ عـلـىـ الـلـهـ وـتـقـوـلـ عـلـيـهـ،ـ وـكـفـ وـتـحدـ أوـ اـفـتـرـاءـ عـلـيـهـ،ـ لـذـكـ فـهـيـ تـؤـدـيـ عـلـىـ مـسـطـوـيـ طـبـقـاتـ الصـوتـ بـصـوـتـ خـفـيـضـ تـسـفـيـهـاـ لـقـائـلـهـاـ،ـ وـتـعـظـيمـاـ لـلـهـ وـاسـتـحـيـاءـ مـنـهـ»ـ⁽³⁵⁾.

هذا ويستمر منحنى الخفض إلى نهاية الآية لما فيها من إخبار وتقرير لمصير هؤلاء المدعين كما أشرنا. مما يعني أن الآية 64 تؤدي من هذا المنظور بنغمة واحدة على طول مداها، وهي النغمة الهابطة.

3 – الآية 73

قال عز وجل: [لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنْ لَمْ يَتَتَّهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ].

يمكن تقسيم هذه الآية إلى مجموعات مقطعيـةـ نـغـمـيـةـ:ـ نـغـمـةـ هـابـطـةـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ [لـقـدـ كـفـرـ الـذـينـ قـالـوـ إـنـ الـلـهـ ثـالـثـ ثـلـاثـةـ]ـ،ـ تـلـيـهـ نـغـمـةـ صـاعـدـةـ تـجـسـدـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ [وـمـاـ مـنـ إـلـهـ إـلـاـ إـلـهـ وـاحـدـ]ـ،ـ بـعـدـهـ نـغـمـةـ هـابـطـةـ تـجـلـيـ منـ خـلـالـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ [وـإـنـ لـمـ يـتـتـهـوـاـ عـمـاـ يـقـوـلـوـنـ]ـ،ـ لـيـمـسـنـ الـذـينـ كـفـرـوـاـ مـنـهـمـ عـذـابـ أـلـيمـ]ـ.ـ فـأـمـاـ الـنـغـمـةـ الـأـوـلـىـ،ـ أـيـ النـغـمـةـ الـهـابـطـةـ:ـ فـلـأـنـ الـمـقـامـ هـنـاـ مـقـامـ اـفـتـرـاءـ وـادـعـاءـ باـطـلـ وـكـاذـبـ،ـ ثـتـلـيـ هـذـهـ الـمـجـمـوعـةـ الـمـقـطـعـيـةـ بـصـوـتـ مـنـخـفـضـ تـسـفـيـهـاـ لـقـائـلـهـاـ،ـ وـتـقـدـيسـاـ لـلـمـوـلـىـ عـزـ وـجـلـ.ـ أـمـاـ الـمـجـمـوعـةـ الـمـقـطـعـيـةـ الـثـانـيـةـ فـتـؤـدـيـ فـيـ الرـدـ الـرـبـانـيـ عـلـىـ اـفـتـرـاءـ الـمـسـيـحـيـنـ تـلـمـسـ فـيـهـاـ نـوـعـاـ مـنـ الـانـفـعـالـ الـذـيـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ دـلـالـةـ الـاـسـتـنـكـارـ الشـدـيدـ لـهـذـهـ

الإدعاءات الزائفة، وهذه هي **الوظيفة التعبيرية للتنعيم**، والتي يطلق عليها القراء تسمية: المذ المعنوي الذي يكون قصد المبالغة في النفي والتعظيم «فمَدَ الصوت إذا وارد للتعبير عن المبالغة في نفي الألوهية عن غير الله»⁽³⁶⁾.
 وثُخِّتم الآية بنغمة هابطة على الرغم ما فيها من تهديد ووعيد، إلَّا أنها جاءت في قالب إخباري تقريري.

76 – الآية 4

قال الله تعالى: [قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ].

إنَّ ما يميَّز الاستفهام بأداته "الهمزة وهل" من الناحية الصوتية هو منحنى الرفع سواءً أكان الغرض منها: السؤال أم خرج الغرض إلى معانٍ أخرى ثانوية. وعلى هذا الأساس فإنَّ اتجاه المنحنى النغمي في هذه الآية هو اتجاه تناظري، يبتدئ بنغمة صاعدة يجسَّدتها هنا الاستفهام، تليها نغمة هابطة يمثلها الإخبار والتقرير؛ فأمامَ النغمة الصاعدة فنجدتها في قوله تعالى: [قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا]، وهمزة الاستفهام هنا ليست بغير الاستجواب بقدر ما هي استفهام استنكاري، لأولئك الذين صاروا وأمثالهم ممن عبدوا غير الله ما لا يقدر على الحق ضر عليهم، ولا إيجاد نفع لهم، وفي هذا تبيّح لسوء فعلهم، وتعجب منهم وذم لهم على اقترافهم للمنكرات وإصرارهم عليها؛ فالعجز عن العذر والنفع كيف يعقل أن يكون إلها؟! فكأنَّ تقدير المعنى: عجبًا منكم على أي حال يقع منكم الكفر بالله مع الدلالة الظاهرة على قدرته، والمعجزات القاتحة على صدق ودّه، وقيام الحجج الباهتة على وجوب طاعته، وشكر نعمته وعبادته وحده لا شريك له، أمَّا النغمة الهابطة فتجلّي واضحة في مقام الإخبار والتقرير عند قوله تعالى: [وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيمُ].

91 – الآية 5

قال الله عزَّ وجلَّ في محكم تنزيله: [إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمُ الْغَدَاةَ وَالْبَقْضَاءِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصْنَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّنَّاةِ فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ].

اشتملت الآية على نغمتين مختلفتين الأولى: هابطة تبتدئ من قوله تعالى: [إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ] إلى غاية قوله: [وَعَنِ الْحَمَّاةِ]، وفيها إخبار عن حال شواربي الخمر ولاعبي القمار، تليها نغمة صاعدة في قوله تعالى: [فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ]، حيث ثُوَّدَى هذه المقاطع بتنعيم عال وسريع.

إنَّ التنعيم قد يكون في بعض النصوص أهمَّ من وجود الأداة، لأنَّ هناك العديد من النماذج التي اشتملت على أدوات الاستفهام مثلاً، وهي في الوقت نفسه لم تحكم على تلك النصوص بأنَّها استهامة، فحرف الاستفهام (هل) مثلاً في هذه الآية لا يشير إلى الاستفهام بل هو هنا يفيد معنى الأمر^(**)، يقول صاحب "أيسر التفاسير" في

تفسير قوله تعالى: [فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ]: «أي انتهوا، والاستفهام للأمر لا للاستخار»⁽³⁷⁾.

إذن فدلالة الأمرية هنا واضحة وجليّة؛ فنجمة السؤال الصاعدة تدعو السامع بصوت ممدود ومرتفع إلى الإذعان والتسليم والانتهاء عن شرب الخمر وفعل القمار، امتناعاً لأوامره عزوجل والتقدير (أسلموا وانتهوا)، وهذا السياق يقتضي إحضار معنى الوعيد والتهديد والترهيب، لأنّ هذا الغرض يتطلب إظهار الشدة والحزم والجدّ، وهذا ما يتلاءم مع النجمة المرتفعة، يقول الشيخ "محمد الصابوني" في مقام الحديث عن قوله تعالى: [فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ]: «إيذاناً بـأأنّ الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى»⁽³⁸⁾.

ويمكن إيضاح هذا المعنى أكثر من خلال الحديث الذي ورد في "سنن الترمذى"، حيث رُوي عن "عمر بن الخطاب" أنه قال: «اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاءٍ، فنزلت التي في الـبقرة: [يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ]، فَدَعَى عَمَرْ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاءٍ، فنزلت التي في النساء: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَمْثَوْلَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ]، فَدَعَى عَمَرْ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاءٍ، فنزلت التي في المائدة: [إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَذَابَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ] إلى قوله: [فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ] فَدَعَى عَمَرْ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انتهيناً انتهيناً»⁽³⁹⁾.

112 – الآية 6

يقول الله تعالى: [إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ ائْتُمُ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ].

يمكن تقسيم هذه الآية إلى ثلاثة مجموعات مقطعة بالنظر إليها من زاوية أدائها النغمي: نجمة هابطة تتجلى من خلال قوله تعالى: [إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ]، تليها نجمة صاعدة تتجسد في قوله تعالى: [هَلْ يَسْتَطِعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ]، تتبعها نجمة هابطة أخرى في قوله عزوجل: [قَالَ ائْتُمُ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ]; فالنجمة الهابطة وردت في مقام الإخبار والتقرير، في حين جاءت النجمة الصاعدة في سياق الاستفهام؛ فاما الاستفهام هنا: فهو استفهام حقيقي بالأداة "هل": أي أنه لم يخرج إلى معاني أخرى كما رأينا في السابق، وأما السؤال فهو سؤال "الخواريين": "عيسى بن مريم" والذين اتخذوه وسيطاً بينهم وبين الله يطلب منه ... سبحانه ... ما طلبوه منه. قال تعالى: [قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبُّنَا أَنْزِلْنَا عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ] المائدة/114، وهو سؤال لأجل اطمئنان القلب بالإيمان العيان لا من أجل الشك في قدرة الله على ذلك، ومثاله سؤال "إبراهيم" عليه السلام ربّه ورغبه في رؤية كيفية إحياء الموتى كي يطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة، مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب.

الهوامش والإحالات:

- ^١ - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الزراي: معجم مقاييس اللغة، ج 2، تتح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1429هـ/2008م، مادة نَعْمَة.
- ^٢ - أبو نصر محمد بن محمد بن طرفة الفارابي: الموسيقى الكبير، تتح: غطّاس عبد الملك خشبة، ومحمد محمد الحنفي، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 162.
- ^٣ - شاهر الحسن: علم الدلالة السmantيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1422هـ/2001م، ص 130.
- ^٤ - مصطفى حركات: الصوتيات والfonology، دار الآفاق، الجزائر العاصمة، دط، دس، ص 37.
- ^٥ - محمد إسحاق العناني: مدخل إلى الصوتيات، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط 1، 1429هـ/2008م، ص 94.
- ^٦ - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1425هـ/2004م، ص 243.
- ^٧ - نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، دط، 2006م، ص 138.
- ^٨ - المرجع نفسه، ص ن.
- ^٩ - خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، وجداراً للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط 1، 1427هـ/2006م، ص 149.
- ^{١٠} - تمام حسان: اللغة العربية معناها وبناؤها، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 3، 1418هـ/1998م، ص 226.
- ^{١١} - آمنة شنتوف: الطواهر الصوتية في قراءة حمزة الزبيات - دراسة وصفية وظيفية -، إشراف: خير الدين سيب، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم اللغة الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية: 1431هـ/2009م - 1430هـ/2010م، ص 161.
- ^{١٢} - أحمد البابي: القضايا التطبيزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج 1، عالم الكتب، الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 1433هـ/2012م، ص 187.
- ^{١٣} - بدر الدين محمد عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 1، تتح: أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 450.
- ^{١٤} - أحمد البابي: القضايا التطبيزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج 1، ص 187.
- ^{١٥} - ينظر: خالد عبد الحليم العبسي: النبر في العربية (مناقشة للمفاهيم النظرية ودراسة أكوسنطيكية في القرآن)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 1432هـ/2011م، ص 85.

- ^{١٦} - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص243.
- ^{١٧} - أحمد الباببي: المرجع السابق، ج ١، ص165.
- ^{١٨} - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج ٢، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ومكتبة دار الزيان، الجزائر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص996.
- ^{١٩} - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص243.
- ^{٢٠} - أحمد الباببي: القضايا التطبيزية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية، ج ١، ص 165.
- ^{٢١} - ينظر: حسام البهنساوي: علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص167، ١٦٨.
- ^{٢٢} - المرجع نفسه، ص165.
- ^{٢٣} - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصویر، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص197.
- ^{٢٤} - المرجع نفسه، ص198.
- ^{٢٥} - سهل ليلي: التغيم وأثره في اختلاف المعنى ودلالة السياق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خضر، بسكرة (الجزائر)، العدد السابع، جوان ٢٠١٠م، ص ص ٧، ٨.
- ^{٢٦} - أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، مج ١، ج ١، تتح: موقف شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص63.
- ^{٢٧} - محمد جعفر: المستوى الصوتي في قراءات سورة "عبس المباركة" مقاربة دلالية على ضوء النبر والتغيم، مجلة مركز دراسات الأوفة، جامعة القadiسية، العدد ٦، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص37.
- ^{٢٨} - ينظر: كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، دار مجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ص 61، 62.
- ^{٢٩} - ينظر: كمال بشر: فن الكلام، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، ٢٠٠٣م، ص ص 268، 269.
- ^{٣٠} - مزاحم مطر حسن: أثر التغيم في توجيه الأعراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)، مج ٦، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، العددان (٣ - ٤)، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص40.
- ^{٣١} - تحسين عبد الرضا الوزان: الصوت والمعنى في الدرس اللغوی عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، دار مجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص399.
- ^{٣٢} - صالح سليم عبد القادر الفاخري: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص199.
- * والنغمة في قوله تعالى: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ» نغمة صادعة؛ لأن المقام مقام استفهام (الاستفهام بالهمزة)، غير أن الاستفهام هنا خرج عن معناه الأصلي، فهو في هذه الآية ليس بغرض الاستجواب كما هو ظاهر الآية = بقدر ما هو تحقيقاً، أي أن المتكلم هنا وهو المولى عز وجل أراد حمل المخاطب (عيسى بن مريم) على الاعتراف بمضمون الكلام (الخطاب) الموجه إليه...

- ³³ - أبو الفتح عثمان بن جني: **الخصائص**, مج2، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م، ص470.
- ³⁴ - أحمد مصطفى المراغي: **تفسير المراغي**, مج2، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، ص301.
- ³⁵ - أحمد الباببي: **القضايا النظرية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية**, ج1، ص297.
- ³⁶ - أحمد الباببي: **القضايا النظرية في القراءات القرآنية دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية**, ج1، ص258.
- ** - الأمر : طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء، وقد يخرج عن هذا المعنى الحقيقي إلى معاني أخرى كالنهاية. صالح سليم عبد القادر الفاخري: **الدلالة الصوتية في اللغة العربية**, ص201.
- ³⁷ - أبو ذر الفيلوني: **كلمات القرآن الكريم في كتاب أيسير التفاسير للجزائري**, دار ابن حزم، القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ/2009م، ص169.
- ³⁸ - محمد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**, مج1، ج7، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط4، 1402هـ/1981م، ص366.
- ³⁹ - أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى: **سنن الترمذى**, كتاب تفسير القرآن عن رسول الله(ص), رقم 3060، تحرير: صدفي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م، ص868.

رأي قطرب في الحركات وظاهره الإعراب في آراء اللغويين

أ.د. زيد خليل القراءة

قسم اللغة والأدب العربي جامعة آل البيت الأردن

ملخص المقال:

أخذت الحركات عامة وظاهرة الإعراب بخاصة في اللغة العربية اهتماماً كبيراً في الدراسات اللغوية على اختلاف أبوابها: النحوية، والصرفية، والمعجمية، والصوتية؛ فالحركات موضوع اهتمام من حيث هي حركات بناء تمنع التقاء السواكن، ومن حيث هي حركات إعرابية تلازم أواخر الكلم تبعاً لموقع الكلمة.

لقد وجدت هذه الظاهرة اللغوية الاهتمام من منطلق قيمتها الوظيفية في بنية الكلمة: نحوياً، وصرفياً، ومعجمياً، وصوتياً مما جعل حضور الحركات والحديث عنها يمثل ركناً رئيساً في الدراسات اللغوية، ومهما وقع من خلافات بين العلماء إلا أنها خلافات في الفروع وليس في الأصول؛ فقد يختلف في بناء الكلمة، أو جواز حركتها على غير وجه، وقد يقع اختلاف الأبنية باختلاف اللهجات لكنه اختلاف لا ينطوي على طعن في أصول الآراء اللغوية أو ردّها.

أما المنطلق الثاني الذي أخذت الحركات قيمتها منه فهو الخلاف في الأصول والطعن فيها؛ وهذا يتمثل في رأي قطرب (محمد بن المستنير ت٢٠٦هـ) الذي يرى أن الكلام لم يعرب للدلالة على المعاني، بل جاء بالحركات للفصل بين الحروف والكلمات؛ لأن الفصل بين الكلمات بالوقف والسكون قد يؤدي إلى البطلاء في درج الكلام، ومع أن صاحب هذا الرأي قد تلمذ على سيبويه إلا أنه قد خرج على المألف، وخالف النحاة ورأيهم السائد في الحركات والإعراب، وقد شكل هذا الخروج حركة حجاج لغوي قديماً وحديثاً، وقد وقفت في هذه الدراسة على آراء العلماء ممن تحدثوا في رأي قطرب في الحركات وظاهرة الإعراب محاولاً رصد الآراء، وبيان مضامينها، وتوجيهها في ضوء الدرس اللغوي الحديث، والمعطيات، والأدوات المتتجدة ما أمكن جاعلاً اهتمامي يتمحور حول تطور النظرية المعاصرة لتلك القضية بوصفها موروثاً لغويًا ما زال يمثل إشكالية.

Qutrub's View on Vowels and Their Inflectional Significance

In Conversation/Debate with Other Scholars

Muhammad Ibn al-Mustatir (d. 206 AH) proposed the view that vowels were not introduced into the Arabic language for purposes of inflection or to signify meanings but, rather, in order to separate consonants. This view opened the door wide to discussion and debate, giving rise to a variety of opinions ranging from agreement to objection.

In the present study I have examined and interacted with the views of both ancient and modern scholars, though more lengthy attention is given to the views of modern scholars than those of early thinkers. This overview, which summarizes each scholar's point of view, is followed by a presentation of my own view on the issue at hand, which is indebted in particular to the views of modern scholars.

فهو رأي قطرب وصداه عند القدماء:

تمثل الحركات وظاهره الإعراب في العربية والدرس اللغوي قضية جدلية بين علماء اللغة منذ القدم، وقد كانت هذه القضية مدار حوار وجدل حيناً، ونمطاً من المسوکوت عنه حيناً آخر، وقد وجدت هذه القضية الاهتمام منذ البدايات في الدراسات اللغوية.

لقد كان دور الحركات في الإعراب، ودلائلها على المعنى يعدّ أمراً من المسلمات التي لا يداخلها الشك، وقد تداولها علماء اللغة على هذا الفهم إلى أن ظهر من يثير الشك في هذا الفهم؛ فقد ظهر رأي قطرب (محمد بن المستنير ت 206هـ) الذي أثار الجدل قدّيماً وحديثاً.

لقد جاء في الإيضاح للزجاجي قوله: "اتفق النحاة على أن حر كات الإعراب تبني عن المعاني، وتدل عليها ليتوسّعوا في كلامهم ويقدموا المفا على إن أرادوا، أو المفعول وتكلون الحركات دالة عليه، إلا أنَّ قطرباً قد عاب عليهم هذا الاعتلال وقال: لم يُعرب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها بعضًا، لأننا نجد في كلامهم أسماء متقدة في الإعراب مختلفة المعاني، وأسماء مختلفة في الإعراب متفقة المعاني... فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدلّ عليه لا يزول إلا بزواله. قال قطرب: "إنما أعربت العرب كلامها لأنَّ الاسم في حال الوقوف يلزم السكون للوقوف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزم الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبيطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحرير، جعلوا التحرير معاقباً للإسكان، ليتعذر الكلام... قيل له: فهلا لزموا حركة واحدة لأنها مجزئة لهم إذ كان الغرض إنما هو حركة تعقب سكوناً؟ فقال: لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات، وألا يحظرروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة".¹

إن رأي قطرب السابق يتحدث عن قضيتين مهمتين تعامل معهما العلماء على أنهما من المسلمات، ورأيه يغاير ما ثبت عند النحاة، ويخالفه كلياً، أما القضيتان اللتان تحدث عنهما فهما:

- 1- نظرته للحركات على أنها للفصل بين الصوامت، ولا علاقة لها بالإعراب، وهذا يغاير ما تعارف عليه النحاة وعلماء اللغة.

- 2- أما القضية الثانية فهي رفضه الربط بين الإعراب والمعنى، فالإعراب عند النحاة دال على المعنى، وقريرنته الرئيسية، أما عند قطرب فلا علاقة بين الإعراب والمعنى؛ لأن الحركات ليست للإعراب من أصله.

إن رأي قطرب الذي أفضى به يثير جملة من الأسئلة، ومن أهمها:

- 1- هل سبق قطرب إلى القول بدور الحركات بأنها للفصل بين الصوامت؟

- 2- هل واجه رأي قطرب الرفض من معاصريه؟

وهنا سأقف بداية على السؤال الأول: هل سبق قطرب إلى الإشارة لدور الحركات وعملها؟.

لقد جاءت إشارة في كتاب سيبويه تتحدث عن دور جزئي للحركات، ولم يفصح فيها أن دور الحركات يتوقف على هذا الجانب؛ فقد جاء في الكتاب: "وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به..."² فهو يشير إلى الحركات أنهن زوائد يتوصل بهن للنطق بالحروف، أي للفصل بينها ليسهل درج الكلام، ولكنه لم يقتصر عمل الحركات على هذه الوظيفة، ولم يشر إلى رفض دورها في الإعراب، ولا إلى ربط الإعراب بالمعنى أو نفي ذلك، فهل أفاد قطرب من إشارة سيبويه، وبني عليها رأيه في دور الحركات وعدم الربط بين الإعراب والمعنى؟ وإذا كان قطرب قد تعلم على سيبويه، ووقف على آرائه واعتد بها، فهل من الممكن أن يخالف أستاذه كلياً في قضية مفصلية، ومن أهم قضايا الدرس النحوى؟

لقد جاء رأي قطرب يغاير آراء أساتذته ومعاصريه، ولكن الذي لا يمكن تبيئه هو: هل أفصح قطرب عن رأيه وسيبويه على قيد الحياة، أم أن رأيه قد جاء بعد سيبويه؟ أما التساؤل الثاني ففحواه: ما مدى مواجهة رأي قطرب بالرفض والمعارضة من معاصريه؟ وهذا تساؤل مشروع، إلا أن الإجابة عليه تثير الدهشة؛ فقد بقي رأي قطرب من المسكون عنه إلى أن أثاره الزجاجي مع أن الفجوة بينهما بعيدة، فقد توفي قطرب 206هـ، وتوفي الزجاجي 337هـ. فالفارق بينهما يزيد على (130) مائة وثلاثين سنة، فبعد هذه الفترة يثير الزجاجي هذه القضية بمناقشة رأي قطرب دون أن تصلنا أي ملاحظات من معاصريه أو من لاحقيه من علماء الدرس اللغوي عام، والنحوى بخاصة، فما الذي جعلهم يحجمون عن إثارة هذه القضية إلى أن أثارها الزجاجي؟

لقد أشار بعض العلماء قديماً إلى أهمية الإعراب، وقد نص بعضهم على ربطه بالمعنى ودلالته عليه: فقد جاء في الصاحبى لابن فارس: "من العلوم الجليلة التي حُصلت بها العرب الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذى هو أصل

الكلام، ولو لاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت... وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالإذبار، وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً³ وقد بالغ ابن فارس عندما جعل الإعراب علماً خصت به العرب، فالإعراب ليس مقصوراً على العربية، "فهذه اللاتينية في العصور القديمة، والألمانية في العصر الحاضر، يشتمل كل منهما على قواعد وإعراب، ربما لا يقل في دقتها وتنوعها عن قواعد العربية الفصحى. ومع ذلك لا تزال الألمانية لغة تخاطب بين الألمان، وظلت اللاتينية مدة طويلة لغة تخاطب بين الرومان"⁴. فالإعراب ليس موقوفاً على العربية كما يرى ابن فارس.

ولم يتوقف ابن فارس عند رأيه السابق في قضية دور الإعراب في الدلالة على المعنى، وجعله قرينة دالة عليه، فقد أشار في موطن آخر إلى ذلك بقوله: "فأما الإعراب فهو تميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أنّ قائلًا لو قال (ما أحسن زيد) غير معرب لم يوقف على مراده"⁵ ، وفي موطن آخر يقول: وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني...⁶ وبطبيعة الحال فكراً ربط المعنى بالإعراب، وأن العالمة الإعرابية دليل على المعنى كانت عند أكثر القدماء فكرة مسلمة، ورأي قطرب يمثل الشذوذ في مخالفته إياها. وقد جاء في الخصائص لابن جني في حديثه عن الإعراب ما نصه: "هو الإبانة عن المعنى بالألفاظ، إلا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبهما أحدهما من صاحبه"⁷ إن الإعراب دليل على المعنى، وهذا هو السر في قداسة الإعراب ومكانته عند النحاة واللغويين، فهذا ابن يعيش يقول: "والإعراب الإبانة عن المعاني باختلاف أوآخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها"⁸ يلاحظ أن آراء القدماء تتمحور حول دلالة الإعراب على المعنى، ولم يشيروا إلى أن عمل الحركات هو الفصل بين الصوات، وقد بقي رأي قطرب منفرداً، وتوقفت الإشارة إليه على ما ورد عند الزجاجي في الإيضاح، على أهمية هذا الرأي الذي يمثل خللاً لإحدى الثوابت في الدرس النحوي العربي، وهي من أهم الثوابت.

ولم يقف أمر الحركات ودلالة الإعراب على المعنى عند هذا الحد فقط، بل صرخ (عبد القاهر الجرجاني) في دلائل الإعجاز بأن الألفاظ مغلقة على معانيها ومفتاحها الإعراب، فقد جاء في (الدلائل): "... إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها..."⁹ وفي كلام الجرجاني ما يشير إلى مكانة الإعراب، وقيمته في الدلالة على المعنى حتى أنه جعل الإعراب يمثل مفاتيح الألفاظ المغلقة للكشف عن معانيها، وفي رأي الجرجاني درجة من التعصب للإعراب لا تخفي.

(صدى رأي قطرب في الحركات ودلالة الإعراب عند المعاصرین)

لقد كانت وظيفة الحركات عند القدماء أنها علامات إعرابية، والإعراب عندهم دليل المعنى باستثناء ما روي عن قطرب أنه يرى غير ذلك، أما المحدثون فقد اهتزت هذه الثوابت عندهم،

ولم تعد لها المكانة والقدسية التي أخذتها عند القدماء؛ وقد انقسم المحدثون في آرائهم إلى ثلاثة فئات: الفئة الأولى ترفض أن يكون عمل الحركات مرتبطاً بالإعراب، وترفض القول بدلالة الإعراب على المعنى وربطه به، والفئة الثانية تتلزم نهج القدماء بالقول: إنَّ عمل الحركات ودورها مرتبط بالإعراب، والإعراب دال على المعنى، وهم يطرون هذا الرأي على أنه من المسلمات، ويستهجنون رأي من يرفض ذلك أشد الاستهجان، أما الثالثة فهي الفئة التي اتخذت رأياً وسطياً يأخذ دور الحركات في الإعراب، وكذلك دلالة الإعراب على المعنى، ولكن الحركات ليست الدليل الوحيد على الإعراب، والإعراب قرينة على المعنى، ولكنه ليس القرينة الوحيدة.

أما انقسام المعاصرین وموقفهم من رأي قطرب من حيث التبعية أو الرفض فقد انقسم المعاصرون في آرائهم في وظيفة الحركات الإعرابية، ودلالة الإعراب على المعنى ثلاثة أقسام: قسم اتبع رأي قطرب بنفي وظيفة الحركات الإعرابية والدلالة على المعنى وهم الذين خرجوا على المألوف، وقسم رفض رأي قطرب على الإطلاق وقال أصحابه بوظيفة الحركات الإعرابية، ودلالة الإعراب على المعنى وقد اتسم طرحهم بالتعصب، أما القسم الثالث فهم الذين اتبعوا الاعتدال والمتوسطية حيث أخذوا بوظيفة الحركات الإعرابية دون قصر الإعراب على الحركات، إضافة إلى أنَّ الإعراب دال على المعنى ولكن قرينة من عدة قرائن، وساقف على آراء العلماء في هذه الأقسام الثلاثة مبيناً وجهات نظرهم.

أما الفئة الأولى من المعاصرين الذين التقطوا رأي قطرب وأخذوا به بشكل صريح فقد كان إبراهيم أنيس أولهم في قراءته لدور الحركات، وعدم دلالتها على الإعراب، وعدم دلالة الإعراب على المعنى، وقد جاءت قراءته هذه في كتابه: (من أسرار اللغة) إذ يقول فيه: "لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحديد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأديان لوصول الكلمات بعضها ببعض. وقد قرر بعض المتقدمين من ثقات العلماء أنَّ وظيفة الحركة الإعرابية لا تعود أن تكون لوصول الكلمات بعضها البعض في الكلام المتصل، لذلك جاز سقوطها في الوقف، وجاز سقوطها في بعض المواضع من الشعر..."¹⁰.

يفهم من كلام أنيس السابق أنَّ وظيفة الحركات تنحصر في وصل الكلام، وأنها (أي الحركات) ليست دالة على المعنى عند العرب القدماء، وما دلالة الإعراب على المعنى إلا زعم من النحاة لا مرجعية له في أذهان القدماء. وقد أخذ إبراهيم أنيس على العلماء الذين يقولون بدلالة الإعراب على المعنى ضعف حجتهم، وقد احتاج برأي بعض القدماء إذ يقول: "تمسك معظم العلماء بالحركات الإعرابية، بل إنَّ منهم من اعتبرها دلائل على المعنى. فالمبرد وأمثاله ومن أبو إباء شديداً حذف هذه الحركات الإعرابية، غير أنَّ أبو علي الفارسي كان يجيز حذف هذه الحركات الإعرابية في بعض المواضع، ولا يرى في هذا ماساً بالمعنى"¹¹.

إنَّ رأي أبي علي الفارسي لا يشير إلى الدعوة إلى حذف الحركة الإعرابية على الإطلاق، وإنما أشار إلى حذفها في بعض المواطن، وهذا الحذف قد يعوض عنه بالقرائن الأخرى، كالسياق، والرتبة ولا ينفك إبراهيم أنيس محاولاً التأكيد على فكرته، واتباع الأدلة، فهو يرى "أنَّ تحريرك أواخر كلِّ الكلمات لم يكن في أصل نشأتها إلا صورة للتخلص من التقاء الساكنين، غير أنَّ النحاة حيث أعيتهم قواعده وشقّ عليهم استنباطها؛ فصلوا بين عناصر الظاهرة الواحدة. ولعلهم تأثروا في نهجهم هذا بما رأوه حولهم من لغات أخرى كاليونانية مثلًا... فحين وافقت الحركة ما استنبطوه من أصول إعرابية قالوا عنها إنها حركة إعراب، وفي غير ذلك سموها حركة أتي بها للتخلص من التقاء الساكنين... الأصل إذن في جميع كلمات اللغة لا تحرُّك أواخرها إلا حين يدعوا النظام المقطعي وتواлиه إلى هذا التحرير".¹²

وقد ذهب إبراهيم أنيس أبعد من ذلك؛ فلم يتوقف عند رفض فكرة الإعراب ودور الحركات، بل "يرى أنَّ الإعراب لم يكن سمة اللهجات العربية لتلتزم به، وإنما هو سمة اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن، ونظم بها الشعر، والإعراب عنده من الظواهر اللغوية التي يعني بها الخاصة من العرب؛ أما في اللهجات فلا وجود له بما يمثل قاعدة والتزاماً، وقواعده معلومة عند الخاصة يلتزم بها فإذا خرج عنها عيب عليه، ويرى أنَّ الإعراب مواضعة بين الخاصة ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة".¹³

وبما أنه يرى أنَّ الإعراب مواضعة عند الخاصة من العرب، ولم يكن شائعاً في لغات العرب، ولم يكن سليقة أو مظهراً من مظاهر السليقة فإن هذا يعني أنَّ الإعراب طارئ على العربية؛ لأنَّ مفهوم الخاصة لا بد أن يكون قد تشكل، أو تتشكل حضور الأفراد الذين يمثلونه في زمن ما، والأرجح أنه متاخر، وأن يكون بزمن الشعر الجاهلي، إضافة إلى نفي أن يكون سليقة، وما هو إلا تواضع وهذا يمثل نزع صبغة أو خصيصة التلازم بين العربية والإعراب، وكذلك بين الإعراب، والدلالة على المعنى. وإن كان بعض ما يطرحه أنيس مقبولاً إلا أنه ما من شك في وجود مبالغة في رأيه عندما يستبعد الإعراب من حيث أنه سليقة وطبع، ويرى أنه مواضعة متاخرة، وأنه عند الخاصة وليس عاماً في لغات العرب.

ومن قال برفض الإعراب، وعدم دلالة الحركات على وظيفة الإعراب: (جبر ضومط) إذ يرى اعتبار الإعراب وحركاته أمراً ثانوياً لا جوهرياً في الإبارة عن الأغراض، وفي ذلك يقول: "العقل يعلم أنَّ علامات الإعراب في اللغة إنما هي من قبيل الأنفة، والمواضعة، لا من قبيل الجوهر، والحقيقة، فمن ثم قد لا يعد الإخلاص بها إخلاً يقضي على المدخل بالجهل، وعلى الناقد بالفضل... ولو كان الإعراب أمراً جوهرياً في الخطاب، والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطاباً وكتابة وهما أختا العربية، ولما سقط عن السنتنا في كل البلاد العربية حتى من على السنة المشتغلين بال نحو".¹⁴ إنَّ رأي (ضومط) السابق يمثل رفضاً مطلقاً للإعراب، ولا يعطي للحركات أي دور أصلي في الإعراب وربطه بالمعنى، ومع هذا الرفض المطلق الذي أبداه